وهكذا كان فعل القاص العربي أو الاديب أو ما نصطلح على تسميته بالراوية • فقد جمع هذه القصص من افواه الناس ووحدها واحتفظ بها في ذاكرته من جيل الى جيل حتى جاء عصر التدوين • وخير من فعل ذلك هو ابو عبيدة معمر بن المثنى ٢٠٩هـ ، حيث جمع قصص « أيام العرب » بنثرها وشعرها وجعلها في كتاب يضم الفا ومائتي يوم من أيام العرب ، بعد أن كانت الايام متفرقة مشتتة في عدة روايات وفي اجزاء مختلفة ومتباعدة حيث أخذها من الرواة والمدونات الاولية (٢) •

ولقد كان جميع هذه القصص قد جرى بحسب اختصاص الاديب الراوية • فابن اسحق (١٥٠ هـ) فعلا قام بعملية جمع كبيرة لقصص الانبياء والامم ، ودونها في السيرة المعروفة باسمه ، كما فعل ذلك ابن هشام (٢١٨ هـ) الذي اختصر هذه السيرة وغيرها في كتابه الموجود بين ايدينا الان ، على أننا لو شئنا ان نعيش بهذا العمل بشكل اكثر تبكيرا ارتفعنا به الى عصر صدر الاسلام حيث روي عن (زياد بن ابيه ٥٣ هـ) و) دغفل النسابة ٦٠ هـ (و (ابن عباس ٦٨ هـ) قصص كثير ، وعصر معاوية حيث روي عن عبيدة بن شربة (٧٠هـ) مثل ذلك أعقبه الموسوعي الكبير وهب بن منية (١١٠هـ) الا أن كتبهم لم تصل ، لكن احتوتها كتب الاجيال التي اعقبتهم •

واختص ابو عمرو بن العلاء (١٥٤ هـ) والذي لم يصل الينا أي كتاب من كتبه ، والمفضل الضبي (١٦٥ هـ) الذي تسلمنا منه في النثر كتاب الامثال مشروحا وفي الشعر كتاب المفضليات ، ويونس بن حبيب (١٧٠هـ) وابو عبيدة (٢٠٩هـ) وآخرون غيرهم اشتهروا بأيام العرب وأخبارها • كما اختص آخرون في قصص الخرافات والغرائب والعجائب ، من تلك التي يرويها القزويني في كتابه •

وتزخر كتب المؤرخين كالمسعودي والبلاذري والطبري وابن الاثير بقصص التاريخ والبلدان فتروي الاحداث التي وقعت فيها من قيام دول وامارات الى وقوع فتن وحروب وعقد احلاف ومفاوضات • ولن تغفل المادة القصصية الغزيرة التي تفيض بها كتب المفسرين والمحدثين ، وكتب الفقه والسنة وعلوم الدين • وهي جميعا منقولة من افواه الرواة وموضوعة بشكلها النهائي في هذه الكتب •

انواع القصص

تعتبر المادة القصصية من اكثر انواع النثر رواجا في الاذواق الادبية ، فهذا اللون من النثر محبب الى كل نفس ، ونستطيع حصره في أبواب هي :

(أ) القصة التاريخية :

ويروي لنا هذا النوع من القصص السيرة الذاتية للعرب منذ ظهورهم على صفحة التاريخ، مع ذكر أحداثهم وتحركهم داخل جزيرتهم ، وعن طريقه أيضا نتعرف على الاسماء التقليدية الكبيرة لاجداد العرب وسيرة حياتهم حتى تصل القصص بنا الى اسم أول جد لهم وهو (ابو العرب) ، ثم تروي قصة انتقال القبائل العربية الاولى في قسمي شبه الجزيرة الشمالي والجنوبي ، وقصة القبائل التي جابت ارجاء البلاد وطافت في انحائها • ثم قصة الامم والقبائل التي ابيدت وانطمست آثارها مثل عاد وثمود وطسم وجديس • وأكثر ما يغلب على هذه القصص السمات الاسطورية والنزعات الغيبية وعنصر المبالغة التي جاوزت حد التصور المعقول • ويقدم البكري في معجم ما استعجم (٣) جانبا طيبا من هذا النوع من القصص ، الا أن كتب المؤرخين ضمت جانبا كبيرا منها أيضا ، ومن امثلة هذه القصص التي تتحدث عن بلاد العرب وتاريخ جزيرتهم ، ما نقله البكري عن حديث محمد بن السائب الكلبي عن ابن عباس قال (٤) :

فاقتسم ولد معد بن عدنان هذه الارض على سبعة اقسام ، فصار لعمرو بن معد بن عدنان وهو قضاعة ، لمساكنهم ومراعي اغنامهم : جدة ،

(١) تراجع المقدمة القيمة التي وضعها البكري مقدمة لكتابه . الادب العربي ـ بروكلمان ١٢٨/١
(٢) المقدمـة (ص ١٧) .

من شاطيء البحر وما دونها الى منتهى ذات عرق الى حيز الحرم ، من السهل والجبل . وبهـا موضع لكلب يدعى الجدير جدير كلب ، وهـو معروف هناك . وبجدة ولد جده بن جرم بن ربان بن حلوان بن عمران ابن الحاف بن قضاعة، كان يتعشق فاطمة بنت يذكر بن عنترة بن اسد بن ربيعة بن نـزار وكـان اجتماعهـم في محلة واحدة ، وتفرقهـم النجع فيضعنـون فقال حزيمة :

اذا الجـوزاء اردفـت الثريـــا
ظننت بـآل فاطمـة الظنونـا

ظننت بها وظن المـــرء حـــوب
وان أوفى وان ســكن الحجونــا

وحالت دون ذلـك من همـــومي
هموم تخرج الشـجن الدفينـا

أرى ابنـة يذكـر ظعنـت فحلـت
جنـوب الحزن يا شمطا مبينـا

فبلغ شعره ربيعة ، فرصدوه حتى أخذوه فضربوه ، ثم التقى حزيمة ويذكر ، وهمـا ينتحيان (٥) القرظ ، فوثب على يذكر فقتله ، وفيه تقول العرب « حتى يؤوب قارظ عنترة » فلما فقد يذكر قيل لحزيمة : « اين يذكر » قـال :

ـ فارقني ، فلست أدري اين سلك .

فأتهمته ربيعة ، وكـان بينهـم وبـين قضاعة فيه شر ، ولم يتحقق أمر فيؤخذ به حتى قال حزيمة :

فتـاة كـأن رضـاب العصـــير
بفيهـا يعـل بـه الزنجبيـل

قتلـت أباهـا عـلى حبهـا
فتبخـل ان بخلـت أو تنيـل

فاجتمعت نزار بن معـد على قضاعة ، وأعانتهم كندة ، واجتمعت قضاعة واعانتهم عك والاشعرون . فاقتتل الفريقان ، فقهـرت قضاعة ، وأجلوا عن منازلهم ، وظعنـوا منجدين » .

والذي نلاحظه في هذا النص ، أنه خبـر جاهلي مروى بالفاظ قد تكون فيهـا بعض العبارات الاصيلة ، الا أن تدخـل الراويـة الاسلامي واضح في داخل النص من قوله عـن موضع (الجدير) انه معروف هنالك . ومـع ذلك ، وطالما أن القصة جاهلية ، فلن يؤثر فيها كون الفاظها لم ترو بنصها ، وهو أمر ثابت من اختلافها في كتاب البكري الى كتاب مجمع الامثال الى ما ذكره صاحب اللسان في مادة (قـرظ) لكن الذي يؤيد جاهليتها هو استشهاد الشعـر الجاهلي بها ، فقد وردت في قول بشر بن أبي خازم :

فرجي الخـير وانتظـري ايـابي
اذا ما القــارظ العنزي آبـا

وقال ابو ذؤيب الهذلي :

فتلك التي لا يبـرح القلب حبهـا
ولا ذكرهــا ما أرزمت أم حائل (٦)

وحتى يـؤوب القارظـان كلاهمـا
وينشر في الموتى كليـب لوائـل

وجاء المثل المذكور في القصة نفسها مؤيدا لذلك . هذا وان هذه الاشعار ساعدت عـلى ديمومة القصة بين الناس ، حيث وظفها الشاعر في شعره فحفز الناس على حفظها وتذكرها مع مر الزمن .

وتقدم لنا القصص التاريخية مزيدا من صور الصراع الذى كان دائرا بين القبائـل آنذاك ، وبالاخص الصراع الكبير بين شـقي شبه الجزيرة ، شماليها وجنوبيها ، وهي مرحلة مرت بها جميع أمم الارض ، وهي تسعى نحو الاستقرار والتوحد .

وقد جاءت هذه القصص أيضا ، مطرزة بالوان الخيال الزاهي الجميل من حب وبطولة

(١) جـاء في اللسان : ينتحيان القرظ ويجتنيانه . والقرظ شجر تتخذ منه مادة الدباغة . وفي امثال الميداني فهما خرجا يجتنيان العسل ، فنزل يذكر في بئر فيه عسل فلم يسعفه حزيمة بالحبل ، فتركه فمات فيه .

(١) ارزمت : حنّت . والحائل : الانثى من صغار الناقة ساعة تلدها .

وكرم ومروءة ، حيث تمتزج الموهبة الشعرية بالموهبة اللغوية لتضفي على هذه الاعمال الفنية خصوبة واشراقا .

ولاحظنا على هذه القصص انها اذا روت احداثا موغلة في القدم بالغت في أطرها الغيبية وسماتها الاسطورية ، أما اذا روت احداثا قريبة من تاريخ الرواية والتدوين ، راعت الواقعية الجديدة التي جاء بها الاسلام واقتصدت في القضايا الغيبية والتزمت بصدق الفكرة والسرد والحدث ، وابدت اهتماما باللغة ، فحاولت أن تنقل كلام الابطال الرئيسيين في الرواية نقلا أمينا .

وتأتي أيام العرب على رأس هذه القصص .. وهي كما ذكرنا في الفقرة السابقة ، ان الايام البعيدة جدا عن تاريخ الهجرة ، تروى بوجه اسطوري قريب من أدب الامم القديمة يومذاك ، وهو أدب كلاسيكي يعتمد التهويل في اضفاء سمات القوة والعظمة على الابطال ، كالذي نلمسه في أدب وادي الرافدين ، وفي ادب الامم القديمة الاخرى مثل شخصيات قصة كلكامش العراقية والالياذة اليونانية والريجيفيدا الهندية والشاهنامة الفارسية ، حيث تضفي القصة على ابطالها صفات تقترب بهم من مصاف الآلهة ، وهكذا فعلت « أيام العرب » المروية عن تلك العهود . وهذا جدول مقارنة بين شخصيتين قصصيتين هما : كلكامش وعمليق بن سام ، الاول بطل ملحمة كلكامش (٧) ، والثاني بطل يوم اليمامة (٨) .

ملحمة كلكامش (٩)

١ ـ كلكامش ملك اوروك الذي كان في البداية يظلم قومه بالاستيلاء على حقوقهم حتى العذارى قبل ان يحملن الى ازواجهن .
٢ ـ ثلثاه اله وثلثه الباقي بشر .
٣ ـ جده اتويشتم صنع الفلك يوم الطوفان وكوفىء بالخلود .
٤ ـ انكيدو ، تستثيره بقايا المعبد المقدسات ليقتل كلكامش ويخلص حرائر النساء من العبودية .
٥ ـ انكيدو بدأ متوحشا في الغاب والجبل وانتهى صديقا لكلكامش .
٦ ـ الرحلة على سفينة عبر بحار الموت وهي سفينه اسطوريه ولا يخفى ما بين سفينة الصحراء وسفينة البحر من علاقة مشابهة .

يوم اليمامة (٩)

١ ـ عمليق بن سام ، ملك اليمامة الذي كان يمارس نفس الظلم مستوليا على كل فتاة تزف الى بعلها .
٢ ـ كان فيه تقديس ، وكان جده نوح وكان نبيا قديما عاش أكثر من الف عام .
٣ ـ جده نوح صنع الفلك يوم الطوفان وأعطى عمرا مديدا جدا .
٤ ـ الاسود بن غفار تستثيره أخته بان تخرج له في صورة بغي ومعها النسوة ليخلص الحرائر من الاغتصاب .
٥ ـ الاسود بدأ صديقا لعمليق وانتهى قاتلا له واحتمى بالصحرا والجبل متوحشا فقتله الطائيون .
٦ ـ الرحلة غامضة لكن الطائيين وصلوا الجبل يقودهم جمل اسطوري وهو يقابل سفينة ملحمة كلكامش .

وعندما روى الادباء قصص الايام القريبة من ظهور الاسلام ، أبدوا تعقلهم في رسم الشخصيات ، ولم يبالغوا في الاسطورة ، وحاولوا ان يحتفظوا باصالة التعبير اللغوي والعبارة ، فحفلت الايام بالشواهد العلمية والمشاهد العربية والحياة الجاهلية بكل قيمها واعرافها وعاداتها وتقاليدها ، وما تضمنته من معارف وثقافات ، فضلا عن الذوق العربي في حياة البادية والمدن .

ولم تعكس « ايام العرب » حياة البدو فحسب ، بل وصلت الينا أيام كبيرة تعكس حياة المدن أيضا . فيوم الفجار من ايام المكيين من كنانة قريش وعبد مناف وعبدالدار وعبد مناة وبني مخزوم وبني بكر ضد الهوازنيين من بني مضر وبين جعفر بن كلاب مدينة (مكة) المكرمة وأهلها ، وأيام الاوس والخزرج (١١) يحكي قصة مدينة (يثرب) وصراع أهلها فيما بينهم . وكلا اليومين شهدهما رسول الله (ص) . شهد الفجار صغيرا يناول قومه النبل في المعركة ، وشهد (الاوس والخزرج) نبيا مبعوثا بالرحمة يعقد الصلح بين الحيين الكبيرين المتقاتلين ، فشتان بين يومه هذا ويومه ذاك .

وليست أيام العرب محض وقائع وغارات، كما صورها المؤرخون ، بل هي ثقافة وادب قصصي رائع ، فضلا عما تقدمه من المعلومات القيمة عن حياة العرب ومثلهم في البطولة

والكرم ومعاملة الغير قبل الاسلام ، ويستطيع علماء الاجتماع والانثروبولوجيا (علم الانسان) أن يستنبطوا المزيد من المعلومات المتنوعة مما يعنيهم في هذا المجال من قصص « الايام » • الا أن المؤسف ان كتب الرواة الاوائل لم تصل الينا ، ولا كتب من تبعهم من تلامذتهم ، الا أن هؤلاء التلامذة ضمنوا كتبهم الاخرى قطعا من هذه القصص مروية عن الاوائل امثال ابي عمرو بن العلاء (١٥٤هـ) ومحمد بن السائب الكلبي (١٤٩هـ) والمفضل الضبي (١٦٥هـ) • ويونس بن حبيب (١٨٣هـ) •• أما الطبقة الثانية من الرجال ، فيأتي ابو عبيدة (٢٠٩هـ) في المقدمة ، فقد وصلت الينا اخبار الايام عن طريقة موجزة في كتب العلماء الاخرى ، ولم تصل الينا كتب الايام التي وضعها علماء مثل حماد الراوية ، وكان له كتاب يدعى (الايام) • ولابي عبيدة كتاب ضم الفا ومائتي يوم وآخر خمسة وسبعين يوما ومثله فعل ابو الفرج الاصفهاني (٣٥٦هـ) حيث جمع الفا وسبعمائة يوم •

أما أهم المظان التي احتوت على موجزات وافية للايام فهي ، نقائض جرير والفرزدق ، المنسوب لابي عبيدة ، والاغاني لابي الفرج الاصفهاني ، والعقد الفريد لابن عبد ربه ، والفاخر للفضل بن سلمة بن عاصم ، وشرح المفضليات لابن الانباري ، وشرح الحماسة للتبريزي ، والامثال للميداني والكامل في التاريخ لابن الاثير ونهاية الارب للنويري وخزانة الادب للبغدادي • ونستطيع اختصار القول بأن الايام مبثوثة في كتب الادب غير ما ذكرناه كالامالي لابي علي القالي وسمط اللئلي للبكري وأمالي الشريف المرتضى • وفي كتب شروح الشعر وشروح الشواهد وكتب الامثال والتراجم والتاريخ والسيرة والبلدان • وقد تنوقلت قصص الايام جيلا بعد جيل حتى انتهت الى هذه الكتب المدونة • •

ومما يلاحظ على هذه القصص انها تشترك مع الشعر في احداثها وروايانها وهي صفة فريدة في الملاحم العربية ، حيث يؤدي النثر مهمة الشعر دون أن تتأثر الملحمة في ذلك ، وقد سبق أن عالجنا هذه الظاهرة عند الحديث عن الشعر •

القصة الشعبية :

ويدخل في هذا الباب نوع منه ، هو الاساطير وقصص الجن والعفاريت والغول والسعلاة ، ويدخل فيه أيضا قصص الحيوان ، وما تروى حوله من الحوادث الغريبة ، مثل قصة الحية التي ملكت كنزا والسعلاة التي صادقت شاعرا ، والنعامة التي يمتطيها الجن في الصحراء الموحشة تحت جنح الظلام ، وتدخل جميعها في باب الميثولوجيا ، وهي مرحلة متقدمة من حياة الشعوب مر بها جميع أهل الارض ، حيث اعتقد الناس في أول حياتهم البدائية بان الحيوان كان في الزمان الاول ناطقا ، وان ما ينطق منه الان يعد من قبيل الجن • والعرب مثل بقية الشعوب اعتقدوا أيضا بان أرضهم كان يسكنها قبلهم اقوام طوال يقال لهم العماليق • وقد ورد في قصصهم ذكر طائفة طيبة من اخبار هذه المخلوقات المنقرضة في نظرهم • وقد بقيت لدينا منها قصة (عوج بن عناق) وغيرها مما وعتها حافظة الرواة ، مثل قصة العماليق الذين كانوا يسكنون جبلي أجا وسلمى قبل ان تنافسهم عليها قبيلة طي وتسلبهما منهم فعرف الجبل باسمها فيما بعد • وكذلك اخبار امرأة (عوج بن عناق) التي يقال انها كانت لفرط طولها تشغل جريبا من الارض ، وكانت اظفارها كالمنجل في طولها • وعندما أراد الله ان ينقذ الناس من شرها ارسل اليها ذئابا في حجم الجمال فأكلتها • وقالت القصص عن زوجها (عوج) انه اذا أراد ان يطعم شيئا مد يده في اعماق البحر فأخرج سمكة كبيرة رفعها الى قرص الشمس فشواها واكلها ، وانه عندما توفي لم يسعه قبر ، وظلت من عظامه بقية ، فكانت احداها قد اتخذت قنطرة يعبر عليها الناس الى مئات السنين • هذا وغيره من اخبارهم يرد في كتب المؤرخين والقصاصين • وقد وصل الينا قسم من هذه القصص عن طريق الشعر ، حيث يروي لنا النابغة قصة الحية والكنز • ونحن لا نزعم بان هذه القصص مروية بالفاظها ، ولكن نفترض بأن جذرا منه

مروي بالفاظه من العصر الجاهلي ، وبالاخص حوار الابطال في القصة ، والذي اصبح فيما بعد حكمة او مثلا أو قولا مأثورا ، وقد لا يكون نثرا بل رجزا أو شعرا ، كما لا نزعم بان هذا الحوار واقعي حقيقي ، بل انه تأليف ، صنعته الامة أو المؤلف المجهول في العصر الجاهلي ، فهو يمثل حياتهم من جميع الوجوه ·

وبعض هذه القصص وارد في القرآن الكريم ، الا أنه مختصر جدا ، لانه كان معروفا لديهم يومئذ ، ولو لم يكن كذلك لعمد القرآن الى تفصيله ، فجاء معجزا في ايجازه وشموله وبيانه ، ولو شاء منزله لجعله في حجمه يفوق حجم الاسفار السماوية الاخرى ، لوفرة قصصه وشرائعه · وأما القصص الواقعي الذي نفترض انه واقعي ، مثل البسوس والفجار والاوس والخزرج وداحس والغبراء ، فلم يجد القرآن الكريم ضرورة لذكره ، بل اقتضت الاشارة اليه فحسب ، وكمثل واضح لقصصهم في الحيوان نورد قصة الحية والفأس ، وهي مما رواه المفضل الضبي (١٢) :

زعموا أن أخوين كانا فيما مضى في ابل لهما ، فأجدبت بلادهما ، وكان قريبا منهما واد فيه حية ، قد حمته من كل أحد · فقال احدهما للاخر :

ــ يا فلان لو أني اتيت هذا الوادي المكلىء ، فرعيت فيه أبلي واصلحتها ·

فقال له أخوه :

ــ اني اخاف عليك الحية ، الا ترى أن احدا لم يهبط ذاك الوادي الا أهلكته ·

قال :

ــ فوالله لاهبطن ·

فهبط ذلك الوادي ، فرعا ابله به زمانا ·

ثم ان الحية لدغته فقتلته · فقال أخوه :

ــ ما في الحياة بعد أخي خير ، ولاطلبن الحية فأقتلها أو لاتبعن أخي ·

فهبط ذلك الوادي ، فطلب الحية ليقتلها· فقالت :

ــ الا ترى أني قتلت أخاك ، فهل لك في الصلح ، فأدعك بهذا الوادي ، فتكون به ، وأعطيك ما بقيت دينارا في كل يوم :

قال :

ــ أفاعلة انت ؟

قالت :

ــ نعم ··

قال :

ــ فاني افعل ·

فحلف لها وأعطاها المواثيق ، لا يضيرها ، وجعلت تعطيه كل يوم دينارا ، فكثر ماله ونمت ابله ، حتى كان من أحسن الناس حالا ، ثم انه ذكر أخاه ، فقال :

ــ كيف ينفعني العيش وأنا أنظر الى قاتل أخي فلان ؟

فعمد الى فأس فأحدها ، ثم قعد لها ، فمرت به ، فتبعها ، فضربها فأخطأها ، ودخلت الجحر ، فرمى الفأس بالجبل فوقع فوق جحرها فأثرت فيه · فلما رأت ما فعل قطعت عنه الدينار الذي كانت تعطيه ، ولما رأى ذلك تخوف شرها وندم ، فقال لها :

ــ هل لك في أن نتواثق ونعود الى ما كنا عليه ·

فقالت :

ــ كيف اعاهدك وهذا أثر فأسك وانت فاجر لا تبالي بالعهد ؟!·

قال النابغة الذبياني يقتفي سيرة الحية والكنز ويخاطب بني مرة معاتبا اياهم :

واني لالقى من ذوي الضغن منهم
بلا عثرة ، والنفس لابد عاثرة
كما لقيت ذات الصفا من حليفها
وما انفكت الامثال في الناس سائرة

ثم يورد المفضل الضبي بقية القطعة الشعرية في حديث الحية والكنز ·

(١) تاريخ الادب العربي ١/

(٢) الاغاني ١٢٦/٦

القصة الاجتماعية :

وهي لون ثالث من الوان القصة الجاهلية، اختصت بحياة الناس في الحب والزواج وهموم الانسان الاخرى من فقر أو غنى وصحة أو مرض ولقاء أو افتراق ، واكثر ما يغلب على هذه القصص ، الطابع الشخصي ، وانهـا تقص جزئيات حياة الناس اليومية ، بخلاف ما رأيناه في القصص التاريخية وايام العـرب وقصص وغرائب المخلوقات ، الا ان هـؤلاء الافراد الذين تتعرض القصة الاجتماعيـة لهم ، كانوا احيانا تنعكس ذواتهم على الاخرين، وبالاخص عندما يكونون ملوكا أو رؤسـاء قبائل أو رجالا اجتماعيين تشغلهم حيـاة قبيلتهم وقوتهم ، عندئذ تنقلـب القصـة الاجتماعية من ذاتية الى موضوعية • وسنضرب مثلا لنوعين من الحياة الاجتماعية التي يحياها الافراد ، ينتهيان بعدها في أصل واحـد • فالقصة الاولى تعكس صورة الحب المفقـود والذي يهتدى اليه عن طريق الخاتم • وقـد أفادنا كارل بروكلمان بأن قصة افتقاد احد العاشقين والتعرف عليه عن طريـق الخاتم ظاهرة شائعة في الاداب الاجنبية (١٣) •

تقول القصة : قال ابو عمرو ، ووافقه المفضل الضبي (١٤) : أنه عشق ابنة عمه اسماء بنت عوف بن مالك وهو غلام فخطبها الى ابيها• فقال : لا ازوجك حتى تعرف بالبأس • وهذا قبل أن تخرج ربيعة من أرض اليمن ، وكان يعده فيها المواعيد • ثم انطلق مرقش الى ملك من الملوك ، فكان عنده زمانا ، ومدحه فأجازه • وأصاب عوفا زمان شديد ، فأتاه رجل من مراد أخذ بني غطيف ، فأرغبـه في المـال فزوجـه اسماء على مائة من الابل ، ثم تنحى عن بني سعد بن مالك • ورجع مرقش ، فقال اخوته : لا تخبروه الا أنها ماتت • فذبحوا كبشـا وأكلوا لحمه ودفنوا عظامه ولفوها في ملحفه ثم قبروها ، فلما قدم مرقش عليهم واخبروه أنها ماتت ، وأتوا به موضع القبر ، فنظر اليـه وصار بعد ذلك يعتاده ويزوره •

فبينما هو ذات مضطجع وقد تغطى بثوبه ، وابنا أخيه يلعبان بكعبين لهما اذ اختصما في كعب ، فقال احدهما : هذا كعبي أعطانيـه أبي من الكبش الذي دفنوه وقالوا اذا جـاء مرقش أخبرناه أنه قبر اسماء • فكشف مرقش عن رأسه ودعا الغلام ، وكان ضني ضنـا شديدا ، فسأله عن الحديث فأخبره به وبتزويج المرادى اسماء • فدعا مرقش وليدة له ولهـا زوج من غفيلة كان عسيفا لمرقش ، فأمرهـا بأن تدعو له زوجها فدعته ، وكانت له رواحل فأمره باحضارها ليطلب المرادي عليها فاحضره اياها ، فركبها ومضى في طلبـه ، فمرض في الطريق حتى ما يحمل الا معروضا • وانهما نزلا كهفا بأسفل نجران ، وهي أرض مراد ، ومع الغفلي امرأته وليدة مرقش ، فسـمع مرقش زوج الوليدة يقول لها : اتركيه فقد هلك سقما وهلكنا معه ضرا وجوعا • فجعلت الوليدة تبكي من ذلك ، فقال لها زوجهـا : أطيعيني والا فاني تاركك وذاهب • قال : وكان مرقش يكتب • وكان أبوه دفعه وأخاه حرملة ـ وكانا أحب ولديه اليه ـ الى نصراني من أهل الحيرة فعلمهما الخط • فلما سمع مرقش قول الغفلي للوليدة كتب مرقش على مؤخرة الرحل هذه الابيات :

يا صـاحبي تلبثـا لا تعجـلا
ان الـرواح رهني الا تعجـلا

فلعل لبثكمـا يفـرط سـيئا
أو يسبق الاسـراع سيبا مقبـلا

يـا راكبـا امـا عرضـت سيئا
أنس بن سعد ان لقيت وحرمـلا

لله دركمـا ودر أبيكمـا
ان افلـت الغفل حتى يقتـلا

من مبلـغ الاقوام ان مرقشـا
اضحى على الاصحاب عبئـا مثقلا

وكأنما تـرد السباع بشلوه
اذ غاب جمع بني ضبيعة منهـلا

فانطلق الغفلي وأمرأته حتى رجعـا الى

---

(١) عسيفا : اجيرا وعبدا يستعان به •

(١) هذه رواية المفضليات ، وفي الاغاني : العبدان •

أهلهما ، فقالا : مات المرقش • ونظر حرملة الى الرحل ، وجعل يقلبه ، فقرأ الابيات ، فدعاهما وخوفهما وأمرهما بان يصدقاه ، ففعلا ، فقتلهما • وقد كانا وصفا له الموضع ، فركب في طلب المرقش حتى أتى المكان ، فسأل عن خبره ، فعرف أن مرقشا كان في الكهف ، ولم يزل فيه حتى اذا هو بغنم تنزو على الغار الذي هو فيه وأقبل راعيها اليها ، فلما بصر به قال له : ما أنت وما شأنك ؟! فقال له مرقش : أنا رجل من مراد • من انت ؟ قال : أنا راعي فلان • فاذا هو راعي زوج اسماء ، فقال له مرقش : أتستطيع أن تكلم اسماء امـــرأة صاحبك ؟ قال : لا ، ولا أدنو منها • ولكن تأتيني كل ليلة جاريتها فأحلب لها عنــزا فتأتيها بلبنها • فقال له : خذ خاتمي هذا ، فاذا حلبت فألقه في اللبن فانها ستعرفه ، وانك مصيب به خيرا لم يصبه راع قط ان انت فعلت ذلك • فأخذ الراعي الخاتم ، ولما راحت الجارية بالقدح وحلب العنز طرح الخاتم فيه ، فانطلقت الجارية به وتركته بين يديها ، فلما سكنت الرغوة اخذته فشربته ، وكذلك كانت ، فقرع الخاتم ثنيتها ، فأخذتــه واستضاءت فعرفته ، فقالت للجارية : ما هذا الخاتم ؟ قالت : ما لي به علم ، فأرسلتها الى مولاهــا وهو في شرف بنجران ، فأقبل فزعا ، فقال لها : لم دعوتني • قالت له : ادع عبدك راعي غنمك • فدعاه • فقالت : سله أين وجد الخاتم • قال : وجدته مع رجل في كهف خبان قال لي : اطرحه في اللبن الذي تشربه اسماء فانك مصيب بــه خيرا ، وما اخبرني من هو ، ولقد تركته في آخر رمق •

ثم تمضي القصة مصورة موت مرقــش بين يدي اسماء وتذكر آخر شعره قبل موته •

وأما القصة الثانية ، فهي تبدأ ذاتية ، وتنتهي موضوعية ، تحكي قصة رجل من العرب كان له شأن كبير في اخماد نار اهلية ، وهي حرب داحس والغبراء ، يقول مختصر القصة :

ان الحارث بن عوف المري ، لما أراد ان يتزوج سأل ان كان هناك من العرب من يرفض ان يعطيه ابنته ، فقيل له : نعم انه أوس بن حارثة بن لام الطائي ، فقال لغلامه : جهز لنا جهازنا لنرحل اليه • فلما وقف عليه خاطبا ، رفض خطبته ، فعزم على الرحيل • فتدخلت أم العروس لمصلحة الخاطب وقالت : اذا لـم تزوج ابنتك سيد العرب ، فلمن تزوجهـــا ؟ فتدارك ما كان منه ، وجعل يعرضه على بناته الثلاث ، فقالت الكبرى :لا تفعل ، لاني امرأة في وجهي ردة ، وفي خلقي بعض العهدة (١٥) ، ولست بابنة عمك فيرعى رحمي ، وليس بجارك في البلد فيستحي منك ، ولا آمن ان يرى مني ما يكره فيطلقني • وقالت الوسطى مثل اختها ، ثم وقع الاختيار على الصغرى ، وذلك أنهـــا وجدت نفسها تصلح لمقامه • فلما أراد ان يتزوجها في بيت ابيها ، امتنعت وقالت : مه ، اعتد أبي وأخوتي • هذا ما لا يكون ، فأمر بالرحلة فساروا ما شاء الله ، ثم عزم على أن يحتلفوا بالزواج وهم بين احياء العرب ، فقالت: أكما يفعل بالامة الحليبة والسبية الاخيذة ، لا والله حتى تنحر الجزر وتذبح الغنم ، وتدعو العرب ، وتعمل ما يعمل به لمثلي • فقـــال الحارث : اني لارى همة وعقلا وارجو أن تكون المرأة منجبة ، فرحلوا حتى دخلوا بلادهم، فأحضر الابل والغنم واقام الاحتفالات للمناسبة السعيدة ، ودخل عليها وقال : لقد احضرنا من المال ما قد ترين • فقالت : والله لقد ذكـرت لي من الشرف ما لا اراه فيك ! فقال الحارث ؟ وكيف ؟! قالت : أتفرغ للنساء والعرب تقتل بعضها « وذلك في أيام حرب وعبس وذبيان » ، قال الحارث : فيكون ماذا ؟ قالت : اخرج الى هؤلاء القوم فأصلح بينهم ، ثم ارجع الى أهلك فلن يفوتك • فقال الحارث : اني لارى همة وعقلا ، ولقد قالت قولا • فخـــرج الحارث وسعى في الصلح وحمل من الديات ثلاثة الاف

(١) الردة : القبح مع شيء من الجمال . والعهدة : الضعف.

بعير ، دفعها في ثلاث سنين ، وانصرف بأجمل الذكر ، فمدح هو وقومه بذلك ، وقال فيهم زهير بن ابي سلمى معلقته ، وذكر أخا هرم بن عوف فقال :

يمينا لنعم السيدان وجدتما
على كل حال من سحيل ومبرم
تداركتما عبسا وذبيان بعدما
تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم

وقد قلتما ان ندرك السلم واسعا
بمال ومعروف من الامر تسلم
فاصبح يجرى فيهما من تلادكم
مغانم شتى من اقال مؤنم
واصبحتما منها على خير موطن
بعيدين فيها من عقوق ومأثم
عظيمين في عليا معد وغيرها
ومن يستبح كنزا من المجد يعظم

خلجات رومانسية في مخطوطة ابن بشرى الغرناطي "عدة الجليس وموانسة الوزير الرئيس"

عدنان محمد الطعمة

في يوم كثيف الضباب قذفت المطابع كتابا جليلا بالايطالية في سبع مجلدات عنوانه :

Dell origine, progressi e stato attuale d'ovgni Letteratura - Balirm - 1799

للاب الاسباني خوان اندريس(١) وهو من الاباء اليسوعيين الذين طردوا من اسبانيا عام ١٧٦٧ ، اشاد هذا الرجل بان اوربا مدينة للعرب في كل العلوم والفنون والاداب ، وانها قلدت المسلمين في كل حياتهم المعيشية والاجتماعية ، وللعرب المسلمين الفضل الاول في نهضتهم وتطورهم ، وانتقالهم من مرحلة الهمجية الى مرحلة المدنية ، كانت هذه المبادرة في تلك الفترة معد اهانة مقصودة الى المجتمع الاوربي ، فقد وقعت آراؤه موقعا سيئا لدى المتعصبين الكاثوليك وبدات ردود الفعل ترتسم على وجوه علمائهم ، في يومها لم تكن المراجع والمصادر متداولة بين الايدي ، ولم يكن ثمة دليل مادي لدى هؤلاء الناس ، بل وكان راي خوان اندريس الهاما عبقريا اثبتت الايام صحة اقواله فيما بعد ، في حين ان الدراسات العربية كانت قد بدات خطواتها الاولى .

ولم تكن صحة آراء الاب خوان اندريس آعتباطية بل انها حصيلة سنوات طويلة ايام شتاء اسبانيا الجميل ، وهو مكبّ بدير سان لورنثيو على دراسات مخطوطات الاسكوريال التي رتبها له ووصفها بالاصل اللاتيني لاول مرة الاب اللبناني الاصل ميخائيل الفزيري (٢) .

وقد استطاع خوان اندريس ان يلزم الاوربيين بفضل العرب على الحضارة الاوربية ويلقي باحكامه دونما خشية أحد . وحتى لو اعتبرت ضربا من الخيال ، كما حدث ولكن كانت آراؤه قد اثبتت يقينها بعد قرنين من الزمن اللاحق .

كل ذلك كان ممكنا في مجال العلوم والفنون التطبيقية ، في الطب والصيدلة والكيمياء والرياضيات وعلوم الفلك ، والانواء ، وانواع الصناعات ولكن في حقل الفناء والموسيقى والاداب والشعر خاصة كان مستبعدا تماما عن اذهان العلماء الغربيين والمستشرقين بشكل خاص ، الا ان الاب خوان اندريس صرح في كتابه هذا بتأثير الشعر العربي في بواكير الشعر الفنائي الاوربي وهذه النقطة كانت خطيرة ومهمة في الوقت نفسه وقد اهملت تماما في البداية ، وقوبلت بعد ذلك بسخرية وهجوم عنيف لدى الاوساط الادبية .

وجاء القرن التاسع عشر فبدأ بعض المستشرقين يميلون الى راي خوان اندريس ولكن بشرود واضح ولعل اولهم كان بورجستال (٣) فقد نشر مقالين في المجلة الاسيوية ١٨٣٩ ، ١٨٤٩ ، صرح بان هناك تشابها واضحا بين الشعر الغنائي العربي والاوربي ، ولكن الى حد ما ، ثم تلاه المستشرق الهولندي رينهارك دوزي(٤) ، وهو شيخ الدراسات الاندلسية في عصره ، وقد اعتنى عناية خاصة بالدراسات العربية ومؤثراتها في الفكر الاوربي ، ولكن حول نظرية خوان اندريس حاول ان يبتعد عن ميدانها الشائك فقال : ان مسألة التأثيرات الممكنة للشعر العربي مسألة سابقة لاوانها، وجاء بعده فون شاك (٥) Von shack وكان هذا مقتنعا تماما بالنظرية الاندريسية ، فألف كتابا حول الموضوع سماه : الشعر العربي في الاندلس وصقلية » وقال بنظرية التأثير العربي مسلما بها دون ايما دليل وبأيجابية مطلقة ، واول

من اطلق الفنان لدراسة الشعر العربي وتأثيره في الشعر الاوربي هو المستشرق الالماني مارتن هارتمان (٥) كتابة الموشحات الاندلسية الذي نشره عام ١٨٩٧ ، فقد سجل في دراسة استقصاء وصفيا وتسجيليا ، ولكن كانت مفاجأة كبيرة لدى الباحثين في ميدان الدراسات الاستشراقية هي ما نادى به خوليان ريبرا (٧) عام ١٩١٢ بنظرية جديدة مفادها ان الاندلسيين ابتدعوا فنا جديدا مزجوا فيه مؤثراتهم الشرقية العربية واصولهم بحاضر الاندلس (٨) ومعنى ذلك ان الموشح كان نتيجة امتزاج جنسي لغوي نشأ في اسبانيا المسلمة ولهذا تأثير مباشر على اوربا ودليله هو عبارة ابن بسام التي تقول ان الشاعر الاندلسي كان يأخذ اللفظ العامي او العجمي « عجمية الاندلس » ويبني عليها موشحته ، وبفضل نظرية ريبرا حول شكل الموشحة العربي كان تأثيرها واضحاً في شعر التروبادور وهو نموذج الشعراء البروفاتسيين الفرنسيين ، ولاراء ريبرا مؤيدون ومخاصمون ، ولكن نظريته هذه تبنتها جماعة جاءت بعده في هذا الميدان وتطورت حتى اصبحت طابعا اسبانيا وقوميا ، ولم تمضي فترة طويلة على نظرية ريبرا حتى ظهرت بوادر اخرى في مجال الشعر العربي وتأثيره على الشعر الاوربي ، وقد واصل العمل في هذا الميدان ا . ر . نيكل A. R. Nykl ، فقدم عملين أولهما : نشر ديوان شعبي ــ هو مجموعة ابن قزمان الشعرية وهي مجموعة ازجال اندلسية بلهجة عامية الاندلس ، نشرها بحروف لاتينية ، ثم أعقبها ببحث في مجلة الاندلس عن الشعر الغنائي في اسبانيا وقدم دعما جديدا لمؤثرات الشعر العربي في الشعر الفرنسي ــ البروفنسي ــ على جبال البونيه ــ شعر التروبادور ــ وكرر آراءه في كتابة عن الشعر الاندلسي ط . بلتيمور ١٩٤٦ ، ثم جاء بعده مستشرقون فذهبوا الى ان التطورات التي حدثت للشعر العربي في الاندلس والموشح خاصة مؤثرات مشرقيه جاءت من بغداد على يد زرياب ، ثم واصل البحث شيخ المستشرقين الاسبان وحجة الدراساتاللغوية منرث بيدال فخرج بنتيجة هي ان طابع الزجل العربي في الاندلس ورباعياته هو الذي اثر تأثرا مباشرا في ظهور الشعر الجديد في الاندلس، وقد خلف هذا الشكل فيما بعد تأثيرا واضحا في نوع جديد من الشعر الاوربي يسمى بالالبادا La - albada اي الفجريات ، وهي تتحدث عن رحيل الحبيب فجرا الى الثغور للحرب وهذا ما ميز الشعر العربي في الاندلس ، والموشح خاصة .

وجاءت مرحلة اخيرة بعد ظهور مخطوطة جديدة عنوانها : عدة الجليس ومؤنسة الوزير والرئيس لعلي بن البشرى الغرناطي ــ كانت لدى المستشرق الفرنسي كولان وضاعت بعد وفاته احتوت على اكثر من ثلاثمائة وخمسين موشحة فيها حوالي ست وعشرين خرجة رومانسية في عامية الاندلس ،

في هذه المرحلة خطا المستشرق الاسباني الدكتور غارسيا غومث الى الطريق السليم ، ونشر اربع وعشرين خرجة رومانسية في مجلة الاندلس دلل فيها على ان هذه الخرجات ما هي الا اغنيات شعبية بنى عليها الوشاحون الاندلسيون موشحاتهم بما يشبه تقليدهم الشعري وذوقهم الفني واصالتهم في الغناء والموسيقى والموسيقى وخرج بنتيجة ان هذه الاشعار والموشحات هي طريقة الغناء الاندلسي الذي ولع به الغرب الاسلامي ودعم ذلك بنصوص اخرى من كتاب ابن الخطيب : جيش التوشيح(١٧) الذي طبع بعد ذلك عام ١٩٦٧ بتحقيق الاستاذ هلال ناجي كما ساهم الباحثون العرب في هذا المجال ، وما زال هؤلاء يواصلون البحث في نشر النصوص وكتابة الدراسات ، ففي عام (١٨) نشر الدكتور عبدالعزيز الاهواني نص ابن سعيد حول نشأة وتاريخ الموشح وتطوره من كتاب المقتطف في مجلة الاندلس ، ثم تبعه الدكتور جودة الركابي فنشر كتاب دار الطراز في عمل الموشحات لابن سناء الملك ــ دمشق ١٩٤٩(١٩) ، في عام ١٩٥٦ ظهر في ڤيسبادن كتاب : العاطل الحالي(٢٠) والمرخص الغالي ــ لطفيالدين الحلي ، وهي مجموعة نصوص وقواعد للازجال ، ثم استمرت حركة تحقيق النصوص ونشرها في هذا المجال خاصة الاشعار الاندلسية تباعا سواء في المشرق العربي او المغرب ، وآخر ما ظهر ديوان ابن قزمان (٢١) عام ١٩٧٢ في ثلاثة مجلدات بتحقيق غاريس غومت ، اضافة الى كتب مشرقية حول الموشحات كتوسيع التوشيح(٢٢) للصفدي ، وبلوغ الامل (٢٣) في فن الزجل لابن حجة

الموشح :

لون من الوان الغناء نشأ بالاندلس وتطور حتى بلغ اوجه وعظمته في القرن الخامس الهجري ، وللموشح قواعد يتبعها الوشاح وضعت بعد ذلك في عهده الاخير وحول نشأة وتطور هذا الفن واللون

من الادب والغناء ، وجدت نظريات وتفسيرات كثيرة ، يرجعها البعض الى الشعر المشرقي ، وبعضهم يرجعها الى انتقال الموسيقى والغناء من بغداد الى الاندلس ، وبعضهم يخضع هذا اللون الى البيئة الاندلسية نتيجة امتزاج الجنس العربي بالجنس الاسباني ونتيجة ازدواجية اللغة حتى ان كل القبائل تكاد تعرف لطينية الاندلس اي الاسبانية ، وقبيلة بلى التي سكنت اطراف قرطبة تكاد وحدها تجهل هذه اللغة رجالها ونساؤها (٢٤) ، كما يؤكد البعض على نشوئه وسط موروثات اسبانية ودلالته هذه الخرجات الرومانسية التي نجدها في الفعل الاخير من الموشحة أو ما يسمى بالمركز ، واول من انشأ الموشح مقدم بن مقا في القبري الذي عاش في كنف الخلافة الاموية بالاندلس ، او محمد بن حمود القبري كما في رواية ابن بسام (٢٥) حيث ان الوشاح كان يأخذ اللفظ العامي او العجمي ويسميه المركز، ويبين عليه الموشح دون تضمين ولا اغصان ، ومعنى هذا ان الموشح نشأ بسيطا دون تركيبات وتفعيلات داخلية ، ثم دخلت التضمينات في الاغصان ثم دخلت في المراكز ، والتضمين كما في منهج حازم القرطاجني (٢٧) هي تلك التفصيلات الداخلية للاغصان والاقفال والمراكز ، وجاء بعد مقدم بن معافى القبري ، ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد، وابني ابي الحسن(٢٨) وعبادة القزاز ، وعبادة بن ماء السماء ، وهو الذي احدث التغيير الاخير ، كما نجد في كتاب ابن سناء الملك قواعد مفصلة حول تركيب الموشح في شكله ومضمونه وموسيقاه(٢٩) ، وكل من جاء بعده اعتمد طريقته في التأليف واخذ كل التفصيلات والتأويلات من كتابه دار الطراز ، فهناك خرجات عامية عربية واعجمية (لطينية الاندلس) او معربة مأخوذة من اية قرآنة او حديث او بيت من الشعر ، وقد ذكر ابن سناء الملك ان الموشحات ابتدات الاقفال وانتهت بها ، ويسمى ذلك الموشح تاما ومنها ما ابتدأ بالاغصان او الابيات ويسمى اقرعا .

الخرجة :

الخرجة هي البناء الاول في الموشحة عليها يعتمد الوشاح في نظمه للموشحة وتكون بمثابة مفتاح الصول او النوته التي تساعد الجوقة للغناء اضافة الى جانبها اللغوي ، ويراد بذلك تمليح الموشحة اولا ، واعطاء معلمة لصاحب الالحان معرفة السلم الموسيقي لها . وقد اكد الباحثون واجمعوا على انها خاتمة الموشحة ، وهذا صحيح في شكل الموشحة ولكن هي اللبنة الاولى في البناء ، واول من ارخ للتوشيح ليس ابن سناء الملك ولكن ابن بسام حيث ذكر ان الوشاح يأخذ اللفظ العامي او العجمي وهي [الخرجة] ويبنى عليه الموشحة معنى هذا ان الخرجة هي البداية ، واذا اجمع الباحثون على ان الزجل هو تقليد للموشح في شكله ومضمونه ، وان الزجالين قلدوا الوشاحين في خرجاتهم فهذا ليس معناه ان الزجل تطور للموشح ، وانه تقليد للموشح بل العكس هو الصحيح ، ان الموشحة تطورت بتقليد الزجل وتقليد الاغاني الشعبية ، وتطورت شكلا ، وادخلت عليها التعديلات فيما بعد ، وهو تهذيب طريقة الزجل (٣٠) وان الزجالين استفادوا من هذه الاشكال فطوروا انفسهم على غرار تطوير الموشح والاغنية الاندلسية ، وان الاداب الحديثة دائما تحتاج لان تطور نفسها ذلك بتقليد النماذج القديمة مع اضافة ما يبتكر ، ويدخل عليها من جديد الم تكن القصائد العربية في العصر الاموي والعباسي صورة من الشعر القديم مع تحرر من بعض القيود القديمة ، واللغة القديمة ، واضافة أوزان جديدة بل تلاعب في تلك الاوزان بحذف بعض التفعيلات او زيادتها .

بل لعل اشعار مايكوفسكي صورة من شعر الفجر(٣١) .

على اي حال استطاع الوشاحون استخدام الخرجة والالتزام بها لانها هي عمود الموشحة تخرج بهم من الرتابة الموسيقية ، وتخرج بهم الى قائمة الموشحة ، ويسمى ذلك في الشعر الفارسي بالتخلص ، وهو ما يتخلص الشاعر بها في القصيدة، ويلون المغني بها اللحن تلوينا خاصا يؤذن بختام الموشحة . وللخرجة بعد ذلك شروط وضعها مؤرخو الموشحات خاصة ابن سناء الملك حيث ذكر وصفها بانها تكون حجاجية من قبل السخف قزمانية من قبل اللحن ، حارة محرقة وحادة منضجة ، من الفاظ العامة ولغات الداصة(٣٢) منسوجة على منوال ما تقدمها من الابيات والافعال ، خرج الموشح من يكون موشحا الا ان كان موشح مدح ، وذكر الممدوح ان يذكر الممدوح وصفته في الخرجة فانما يحسن ان تكون الخرجة معربة كقول ابن بقي (٣٣) :

انما يحيى ـ سليل كرام
واحد الدنيا ـ ومعنى الانام

ولو كانت الخرجة معربه ولم يذكر اسم الممدوح لتمليحها فلابد ان تكون الفاظها هزازة سحارة خلابة بينها وبين الصبابة قرابة ، وهذا معجز معوز ، وما يوجد منها سوى موشحتين او ثلاثة ، فمن قدر ان يقول هكذا فليعرب والا فليغرب (٣٤) وقد تكون الخرجة عجمية اللفظ بشرط ان يكون لفظها ايضا في العجمي سفسافا نفطيا او رماديا زطيا ، والخرجة هي أبزار الموشح وملحه وسكره ومسكه وعنبره وهي العاقبة (٣٥) وينبغي ان تكون حميدة ، والخاتمة بل السابقة لانها التي ينبغي ان يسبق الخاطر اليها ومنهم من يعجز عن ايراد الخرجة بشرطها فيستعيرها من غيره ، وهو اصوب ممن لا يوفق في خرجته بأن يعربها ، ويتعاقل ولا يلحن ، فيتخافف بل التشاقل وقد تكون الخرجة عامية اندلسية مثل قول ابن بقي (٣٥

سافر حبيبي ـ سحر وما ودعتو
يا وحش قلبي ـ في الليل اذا افتكرتو

او :

حبيبي مضى عني ـ متى نجتمع ماعو

والمشروع او المفروض في الخرجة ان يجعل الخروج اليها وثبا واستطرادا وقولا مستعارا واكثر ما تجعل على السنة الصبيان والنسوان ، والسكرى والسكران ، ولابد في الاغصان التي تسبق الخرجة من : قال ، أو قلت ، او غنى وغنيت ، او انشدت وانشدت وتسير الخرجات على هذا النحو بين العامية العربية والعامية الملونة او لاتينية الاندلس وقد تبلغ من البساطة حدا يجعلها اقرب الى الحديث العادي ،

واكثر ما وصل الينا من خرجات عامية كان على لسان الفتاة وهي تتغزل بفتاها وصبيها الذي يحارب في الثغور او الذي تركها بعيدا ورحل ولم تودعه او التي تخشى الرقيب ، تعلن الفتاة عن حبها لهذا الفتى الاسمر ، او تتمنع عليه في دلال لانها تخشى العذال بعد ذلك ان يتركها وينصرف ، وتخشى الحساد تدعوه الى لقاء حار يضم بينهم الشوق تحت ظلال اشجار الزيتون ، او تحت اشجار التفاح ، وقد شكت اليه الغرام الا انها تشكو في اكثر الاحيان الى امها ، تشكو حالها وبؤسها وحرمانها وعذابها تشكو الفتى الاسمر .

كل تلك الخرجات كانت مجهولة لنا حين كشفها لاول مرة ربرا عام ١٩١٢ بعبارة وردت في الذخيرة، وتعرف لها بعد ذلك ابن سناء الملك ، ونشرت كثيرا في جيش التوشيح لابن الخطيب لكن بعد ذلك اعلن المستشرق الانجليزي شتيرن انه اكتشف مخطوطة عظيمة الاهمية هي : عدة الجليس ومؤانسة الوزير والرئيس ـ لابن بشرى ـ كما اعلن عن وجود موشحات عبرية لها اطارها الاندلسي العربي ولها نفس الخرجات الموجودة في سلسلة الموشحات العربية ، اعلان شتيرن عن نظريته هذه قد احدث ضجة كبيرة في عالم الدراسات الادبية والاندلسية خاصة .

واصبحت الخرجات محط نظر الباحثين وموضوعا هاما لديهم وخصبا في الوقت نفسه وجه شتيرن نظر العلماء الاسبان لفحصها وترتيبها وتحليلها ودراستها دراسة علمية واعتبر ذلك ضمن الادب الاسباني الخالص ، ونالت نظريته حظوة لدى المستشرق الاسباني غارسيا غومت ، فكتب سلسلة من الابحاث والدراسات ونشر هذه الدراسات في مجلة الاندلس اهمها كانت خرجات رومانسية جديدة .

ثم نشر هذه الخرجات مع نصوصها في كتاب مستقل بحروف لاتينية مضافا اليها نصوصا مختارة من جيش التوشيح ، مع موشحه لابن قزمان اخرجها من كتاب صفي الدين الحلي ـ العاطل الحالي ـ وظهر هذا الكتاب لاول مرة في مدريد عام ١٩٦٥ واحتوى الكتاب حوالي (٤٥) موشحة مع دراسة وتحليل لهذه النصوص وترجمة اسبانية كاملة للموشحات وفهارس كاملة لها وقدم مقدمة جليلة لها ، وطبع الكتاب بعد ذلك عدة طبعات كان آخرها طبعة ١٩٧٥ وهي التي اعتمدتها ، والذي يهمني نشره هو المختارات التي نشرها الدكتور غارسيا غومث المستخرجة من كتاب عدة الجليس ومؤانسة الوزير والرئيس ، لابن بشرى ، فهو اكبر مجموعة في الموشحات ، تحتوى حوالي ٣٦٥ موشحة ، وقد ضاعت هذه المخطوطة في النصف الثاني من القرن العشرين بعد ان حفظها لنا الزمن او تعد في حكم الضياع بعد وفاة كولان ، كانت لدى المستشرق شتيرن ، وحينما حضرته الوفاة ، او اوصى هذا العالم الانجليزي ان سلم بعده امانة في عنق مستشرق فرنسي هو كولان ، ولعل الاخير أوصى بها ايضا ، ولكن حينما توفي لا يعرف

مصيرها بعد والى الان ، الا ان المستشرق الاسباني الجليل غومث افادنا بنقل هذه النصوص على عهد كولان ونشر منها حوالي ثلاثين موشحة خرجاتها اسبانية ، في هذا الكتاب سأعرض للخرجات الرومانسية المختارة واترجمها بتصرف وقدر استطاعتي ، واتمنى ان يظهر المخطوط ويقوم به من هو اهل لذلك ويترجم الخرجات كاملة مع دراسة اوسع وشاملة ونحن نأمل ان يوجهنا الباحثون في هذا المجال ما دمنا طلابا نسعى وراء المعرفة والبحث ، وسألحق بنصوص الموشحات التعليقات الضرورية والتعريفات الموجبة لهذا الكتاب الصغير ، وكم تمنيت مسبقا ان يخرج الكتاب ليستفيد منه الباحثون المهتمين في حقل الدراسات الاندلسية ومر ربع قرن ، وما زالت دراسة غومث حول الخرجات لم تترجم .

الخرجات الرومانسية :

ساهم العلماء الباحثون في تفسير الخرجات الاسبانية الرومانسية ، واعطوها دلالات كثيرة ، ولعل اشهرهم خوان ربيرا ، وداسو الونسو ومنذ حين بيدال ، وشيخ الدراسات الاسبانية في وقتنا الحاضر غارسيا غومث واول من اعلنها كما أسلفنا من قبل هو خوان ربيرا ، وقال ان الاغاني جاءت بفضل الحاضنات والمربيات والجواري ، وبفضل الرقيق الاسباني الوافد من الشمال فاستخدمها المستعربون في الاندلس والعرب ، ودخلت البيوت وحتى محافل القضاة والامراء في الاعياد والمناسبات وحفلات الزواج والختان ، فأعجب الاندلسيون بها وآزداد افتتانهم وتأثرهم بجمالها وروعتها ، فاخذها الوشاحون والشعراء لينظموا على غرارها ولنعرض الخرجات الرومانسية الاسبانية في النص الذي سيأتي ضمن هذا الكتاب، وهناك حقيقة ان الخرجات الاسبانية التي وجدت في مخطوطة ابن بشرى المؤلف الذي ما زلنا نجهل الشيء الكثير عنه ، ولا نعرف من امره شيئا سوى كتابه العظيم « عدة الجليس » الخرجات الاسبانية حوالي ثلاثون خرجة من اصل ٣٦٥ خرجة ، معنى ذلك ليس لها تأثير كبير ولا تشكل عشر ١٠/١ من الموشحات التي وصلت الينا . ولكن لسوء الحظ ضاعت المخطوطة او ما زالت في حكم الضياع وليس بين ايدينا الا هذه النصوص التي ننشرها وقد نشرت بحروف لاتينية فأرجعتها الى حرفها العربي الاصيل قدر المستطا ع

(١)

ولنبدأ بموشحة محمد بن عبادة المالطي احد كبار شعراء الوشاحين عصر الطوائف المطلع :

من مورد التنسيم
من سلك فليح
ذي غروب
في قلت
ان ذاقه عاطش
ملظى وحبيب
اطفا اللهيب
في الوقت

يا سيدي ابراهيم
يا صاحب الاسم الحلو « العذب »
أقبل الي ،
في الليل
فان لم تستطع المجيء
سأذهب **انا اليك**
فاخبرني اين سألقاك !

الى متى ؟ سأتحمل فراقها
لا يشبهها مخلوق ابدا
فآه من عيون العاشقات
اذا لم تكن انت !!

ترجمتها في العربية :

يافاتن ، يافاتن
ادخل هنا
حينما يغفل الرقيب(١)

الموشحة الرابعة

موشحة لمجهول :

حينما يبزغ الفجر عليّ
وستفرح نفسي
حيث لا يوجد الرقيب
في هذه الليلة أريد الحبّ !

موشحة لابي العباس الاعمى التطيلي سنة ٥٢٠ هـ - ١١٢٦ م

يامن منحت الحبّ !

آه من حسنك البهيج

بالله ! لماذا تريد

قتلي ؟

موشحة لمحمد بن عبادة القزاز
يمدح بها ابن عباد

انقذيني مما انا فيه

فان حالتي يائسة

ماذا سافعل يا امي

اقبلي اليّ فانني سابكي

موشحة لابي الوليد محمد بن عبدالعزيز بن المعلم قالها في المعضد بن عباد امير اشبيلية :

آه أقبل اليّ يا ساحر

فالفجر عندي بدا أن يشرق ويسطع

وحينها سأطلب الحبّ !

لموشحة لمجهول :

آه اقبل اليّ يا ساحر

فالفجر عندي بدا يسطع ضوءه

وحينها سأطلب الحب !

موشحه لابي العباس الاحمر التطيلي سنة ٥٢٠ هـ ـ ١١٢٦ م

ـ ١ ـ

صديقي عليل بحبي

كيف لا يكون ذلك

لانه لم يات اليّ

ولم يزرني من مدة طويلة .

موشحة لمجهول :
الخرجة :

لا تحبني الاّ بشرط

أن تجمع خلخالي الى قرط

موشحة لمجهول :

هذا الخليع يا أمي

هذا الطائس

اعتدى عليّ بعنف

ولا ارى من يأتني به

موشحة لمجهول :

لو اراد ان يحسن اليّ

لاقبل اليّ وقبلني من مبسمي الذي يشبه الكرز

بعد ان يطوّقني ويضمني اليه

موشحة لابي بكر يحيى بن بقي ت / ٥٤٠ هـ = ١١٤٥ م

آه لقد اقبل العيد ولكن بدونه

وقد يبكى الفؤاد امس لاجله

موشحة للكميت الغربي قيلت في المستعين صاحب سرقطة

لست أرضى صديقا

الا الفتى الاسمر

موشحة لمجهول :

حبيي يا ماما

رشيق ، جميل واشقر

رقبته بلور

وفموّ عنابي

موشحة لمجهول

لا استريح ولا اريد بالعهد

لا اريد الاّ مع ذلك الرشيق

ولن استطيع النوم يا امي .

موشحة لمجهول

فلان الذي عذبني يا أمي

هو الذي سلب روحي

وراح الى سبيله آخذا كتابي .

موشحة للفقيه ابو محمد عبدالله بن هارون الاصبحي اللاردي

– ١ –

لا استطيع النوم يا امي
حتى طلوع الصبح
ويقبل ابو القاسم
بطلعته المشرقة كبزوغ الفجر .

موشحة لابي العباس الاعمى التطيلي ت / ٥٢٠ = ١١٢٦

آه يا امي من يجلب لي
أبوه الحجاج حتى اراه
بطلعته المشرقة كالفجر

موشحة لمجهول :

لا يستطيع النوم مثل طفل يصرخ
الا على صدري ،

موشحة محمد بن عبادة المالطي

اذا ذهبوا يا سيدي
فقد حان الوقت لتقبلني
كما كنت تقبل من قبل
فما احمر ، أحمر كالورس .

موشحة منسوبة الى ابي الوليد يونس بن عيسى الخباز المرسي

حينما ذهب صديقي يا أمي
فسيطول غيابه ، ولم يرحل حتى
يقبلني ! فماذا افعل يا أمي ؟

موشحة لابي عثمان بن ليون ت / ٦٨١ – ٧٥٠ = ١٢٨٢ – ١٣٤٠

حينما ذهب الحبيب يا امي
وكان يطول غيابه
لم يرحل حتى قبلني
فماذا سأفعل بعد رحيله ؟

موشحة مشهورة لابي بكر ويحيى بن بقي ت / ٥٤٠ = ١١٤٥

لاتغضبني يا حبيبي
أنا لا اريد الاذية
والفلالة رخيصة
وهي كافية عندي

موشحة مشهورة لذي الوزارتين ابي بكر محمد بن احمد بن رحيم

لا تؤذني مرة ثانية يا حبيبي
فأنا لا اريد الاذية
ما عندي يكفيني
والغلة رخيصة !!

موشحة لمجهول :

أنعم علي يا حبيبي
ولا تتركني قط
اقبل الي وقبل فمي
فأنا لن اكون غاضبة منك .
ضمني الى صدرك
وآنظر الى مع الضوء الهادي
والفني ثم ارتشف مني
فان الغطاء في جذب !!

موشحة لابي العباس الاعمى التطيلي ت / ٥٢٠ هـ – ١١٢٦ م

فجر هذا اليوم ،
هو يوم عيد العنصرة [عيد القديسيين]
سألا تشتري لي الثوب [المخطط] المدبج
ونشق الريح(١) سويا [اي لنتجول سويا]

موشحة مشهور قيلت في ملك اشبيلية المعتمد بن عباد ٤٣٢ – ٤٨٤ هـ / ١٠٤٠–١٠٩٥

قلت : كيف تترك الحياة
مع من فيها عذب
وحلو مثلها ؟

(١) ترجمتها الحرفية نوال ، نوال – اي تمنح الحب .

(١) الشث : الدقيق الرقيق .

(٢) ترجمتها الى كيف والصواب ما رايته .

(١) الرقيب وخائن وضعتها كما هي في العربية وكلمة Wlies yiló معناها الغل أو العاذل وترجمها غارسيا غوث فائن : طبيبي . oh sedector